بقلم : محمد عبد الحليم عبد الله

كان يسائل نفسه كلما دخلت عليه : « لماذا يبدو عليها التفكير هكذا ؟! » ولم يكن هو فى حقيقة امره من الذين يملكون الجراة للكشف عن اسرار الناس ... لم يكن فضولياً . غير انه لم يستطع ان يتناسى هذا السؤال منذ عينت الآنسة « آمال » كاتبة فى الحسابات تحت اشرافه فى المؤسسة .

ومنذ رآها أول يوم ازداد ايمانا بان المهن قد لا تختار أصحابها فى كثير من الاحوال ... نعم ... فعودها الدقيق وكفها الصغيرة ومزاجها العاطفى المتقلب ... وعيناها اللتان تتعارك فيهما افكار وذكريات اكبر من عمرها ذى العشرين عاما ... وصوتها الشاكى حتى فى حالات السرور — كل هذا ينفى عنها بتاتا صفة كاتبة حسابات ويرشحها ... لماذا ؟! ...

كان يفكر وهو غارق فى «المراجعة» عما تصلح له الآنسة آمال ... ظل يجمع ويطرح بذهن شارد ... وتناهى اليه عزف « بيانو » من احد البيوت القريبة يختلط عبيره بضجيج المواصلات كما تختلط ارقام الحسابات بأفكاره عنها ... عندئذ وثب الى ذهنه خاطر هو انها لا تصلح الا أن تكون « عازفة » ...

وابتسم لافكاره ونظر الى مكتبها الخالى فى حجرته . ثم نظر فى الساعة. انها تكاد تبلغ التاسعة . ووجد نفسه يسأل نفسه من خلال عمليات « الضرب » وضجيج المواصلات وعبير العزف : « لماذا تأخرت اليوم ؟! »

واحس بيد تقبض قلبه بلطف لكنه كان فى عنف لمسة المجروح . ومط شفته اشمئزازا من فكرة انه سيتعلق بها . راى ذلك محالا . فحديث الحب عنده فراغ أو لهو أو خرافة . وهو ليس فى فراغ ولا من طبعه اللهو ولا يؤمن بالخرافات ...

وعاد يراجع الحسبة امامه فاذا بها مليئة بالخطأ . فابتسم ... ووضع قلمه وطلب فنجالا من القهوة ثم عاد ينظر الى مكانها الخالى ...

وفى هذه اللحظة سمع وقع حذاء عال مستعجل الخطا على بلاط الممر الطويل المؤدى الى الحجرة . ثم مالبث ان رآها داخلة تحيى وتعتذر وتجلس وتخلع قفازها وتتنهد وترمى باحدى خصلات شعرها الدانى الى الوراء — كل هذا فى وقت واحد .

فى هذه الوهلة أحس بالهدوء والراحة . لم يكن شاعرا بقلق ولاتعب يرتفعان الى مقدار ما أحس به من

هدوء وراحة عندما دخلت . فجعل يسأل نفسه عن اختلال النسبة بين الضدين كأنه يعمل معادلة حسابية . ثم مالبث ان انصرف عن افكاره كأنما عد ذلك خسارة ... خسارة الا يراقب هيأتها فى هذه اللحظات . وكانت قد اخرجت من حقيبة يدها منديلا صغيرا واخذت تمسح ما تحت عينيها .

لم يكن هناك دموع .. ولكن .. وجهها كان كسماء تنذر بالمطر . بادية القلق والرقة والانكسار . ولو انه هو الآن فى الخامسة والثلاثين الا انه شعر نحوها بالأبوة . الحزن على زاويتى فمها كأنه بيت شعر يوقظ الحماسة . ووجد نفسه على وشك أن يسألها سؤاله المألوف :

« لماذا تأخرت ... خيرا ... »

فالفاه تافها لا مغزى له وفى هذه اللحظة اخرجت هى ورقة ملفوفة ومنها ... سندوتش صغير الحجم .. ومن خلال ابتسامة مقتضبة ألقت اليه بكلمة « اتفضل » ثم قطعت منه .

كانت تأكل بطريقة من يريد ان يحفظ لنفسه الحياة فقط . وتعمل بطريقة من يريد ان يحرق نشاطه كليا . وتتكلم بطريقة من يريد الا يقول الا المطلوب . وكان على وجهها اليوم علامات سهر وارق . يلفها سور من صمت متعمد .

وعاد هو فاكب على الاوراق . وكان صوت العزف يصل متناثرا من خلال الضجيج . خيل اليه انه تحول الى رشاش معطر يتناثر على وجهها الساهم من فوهة « بخاخة »

لكنه على كل احس بشىء يستيقظ فيه . احس بالخوف من حبها ومن التجربة المرعبة . تجربة أن تأخذه فتاة من زوجته وولديه ... كلا ... او جزءا ... وهو كرجل يؤمن بالارقام يؤمن أيضا بأن أدنى درجات الخلل يوهى البناء كله كسقوط « الصفر » فى حسبة ما ...

وكانت هى تأكل ... قطمة وجرعة من كوب الشاى . ورائحة عطر وحشى — غير متناسب مع منظرها الوادع — تملأ جو الغرفة .

ثم ما لبثت أن فرغت من طعامها . ورآها من بين أهدابه مكبة على العمل تحت عينيها هلالان من زرقة البنفسج

فسمع نفسه يهتف فى نفسه : « انها تحترق !! ترى لماذا ؟! »

ولم يكن هذا التفيير الا ترجمة عن شعور يهدده . لم يبلغ الذروة بعد . بدت بوادره ليلة أمس ... الليلة الماضية فقط ... حين فطن الى نفسه وهو يوازن فى صمت ثقيل بين أنف وأنف . وفم وفم . ثم اللون والشعر والصوت ... لها هى ... ولزوجته !!

ثم تماسك فى مكانه . وقف عند نقطة معينة من الافكار كمن يخاف أن يتدحرج . والتقط اكبر ابنائه من على الارض ورفعه وصار يقبله بأعلى صوت حتى ملأ سمع نفسه بصوت قبلاته . وذهب الى مكان ما من المسكن واحضر الراديو ليبدد أفكار نفسه ...

كان ذلك امس ... فى سواد الليلة الماضية ... لكن الآنسة ظهرت له اليوم كحقيقة لا تقبل الجدل . كحركة الجنين غير المرغوب فيه فى بطن الأم . ليس هناك طريق ثالث بين الاجهاض والاكتمال . ومع انعدام الطريق الثالث فان للطريقين مخاطرهما وأوجاعهما .

قام فخرج من الحجرة لا يدرى الى أين . بدا له الممر الطويل العارى من « المشاية » المؤدى الى السلم مثل برزخ ما بين الجنة والنار . فمشى ساهما لا يأبه لسؤال أحد من الجمهور وكان الضجيج الخارجى صدى لما فى نفسه .

ونزل الى الشارع ثم عاد . قطع نفس الطريق . عبر الممر ودلف الى الحجرة . وعندما سمعت هى وقع أقدامه نهضت كمن وجد الحل . هتفت بصوتها الواهن :

ـ « أستاذ كامل ... جئت فى الوقت المناسب ... طلبونى فى البيت لامر طارىء وكان لابد أن تحضر قبل ان انصرف ... تسمح ؟! »

فسأل باهتمام غير مألوف :

ـ ممكن أن أعرف ما بك ياآنسة ..؟

وفتح اهتمامه بابا كان مغلقا . فتحه على نفسه وعلى الآنسة . فلم يكد يكمل سؤاله حتى اجهشت بالبكاء .

احس بالألم والخجل والحيرة فى وقت واحد . بل ... وبشعور مفشوش . شعور من سبب لها كل الآلام التى سكبت دموعها .

فقام وامسك كتفها . ورجاها فى هدوء أن تجلس على كرسى وقدم لها

قرصا من الاسبرين وجرعة من الماء .

وما لبثت ان تمالكت نفسها . ثم ابتسمت تغالب بقية دمعها اما هو فكان فى استكانة من غلب تماما على أمره .

ظلل صمت كانت عيناه فيها ترعى محاسن وجهها قطعته عليه بأن رفعت وجهها اليه وقالت معتذرة :

ـ متاسفة ... انا متاسفة لما حدث !!

ـ بالعكس . متأسف أنا ... أنا الذى ... فقاطعته .

ـ هل تسمح لى بالخروج . آه .. (وضحكت من بين أسنانها كفتاة غريبة عن التى كانت تبكى) عندنا ... حادث سعيد .

وعادت تضحك فى خفوت ووجهها نحو حجرها كما يغرد طائر نصف نائم . فسأل :

ـ من ؟

ـ زوجة أبى !!

ـ آآاه ... زوووجة أبيك

فهزت راسها مؤمنة وعادت ترمقه بكل عينيها .

ـ أنت بلا ام ؟!

ـ منذ طفولتى

ـ ولك اخوة ؟!

ـ منها فقط !!

فابتسم السيد فى بطء كمن تفهم معضلة .

ـ وهى التى . تلد ؟!

فاطرقت خجلا واستطرد هو :

ـ وبهذه المناسبة ... ما موقفها من فكرة ... آ ... زواجك ؟

فغالبها البكاء . فنهضت ومدت يدها مصافحة وهى تقول فى تهالك مؤسى :

ـ فى وقت آخر ... ارجوك ... سعيدة .

عندما دخل المساء اخذ يحس بوحشة الليل . ومع الوحشة واستطالة الوقت وانتظار اليوم التالى بدت له الآنسة آمال حقيقة لا تقبل الجدل ... كحركة الجنين غير المرغوب فيه . وفى هذه اللحظة كانت الساعة تدق التاسعة فى احدى زوايا البيت . فذكرته تلك الرنة المألوفة بأزمات سن الشباب الاول وكانما عادت تقص عليه

ـ بحركة البندول ـ ذكرى كبوات العاطفة . فشعر انه يعيش فى الماضى لكن ـ مع وخزة حزن ـ خيل اليه أنه دون مستوى الصراع الذى بدا فى هذه الليلة مثل جبل يسد طريق الافق .

كانت الساعة ترسل آخر دقاتها . وما كاد السكون يستتب حتى سمع صراخ طفله الصغير . خيل اليه أنه جار ... أنه نوع غير الذى يسمعه منه كل ليلة . وكان صوت امه تناغيه قليلا أو يلهيه ثم يتركه فى يأس .ويعود السيد الى افكاره فلا يلبث أن يعود الطفل الى صراخه .

جعل هذه الليلة يفسر صرخة الطفل بقلبه ... شعر أنها احتجاج ورفض وحنين ... ثم لحظات يأس ودمعة مقهورة . ثم عودة الى أول الحلقة .

وبعد ساعة نفذ كل هذا الى قلبه . شعر ان طفله محتاج الى معونة فقام ليسأل الأم .

ابتسمت والأسى على وجهها . لم ترد على سؤاله . كانت تربت ظهر الطفل عله يهدأ . وكانت خلجات من النوم على اهدابه . لكن الأب راى كف ابنه الصغيرة تتسلل نحو صدر أمه . والأم تحول بينها وبين ما تريد ...

فابتسم الأب . فقد كان ابنه أيضا فى صراع ... امراة تريد ان تفصله

obeikandl.com

عنها ... تريد له ان يفطم . فولاها ظهره وخرج .

وبات طول الليل يستمع الى الأنين. كان الحياه فى احساس هذا الصغير ركزت فى جرعات اللبن ... كل الفواكه والطير واللحم ... والحب والحب .. وهو يقاتل لاقرار دستوره بدمعه وقلبه .

وعندما يغلب النوم الثلاثة يستيقظون على صرخة حنين هى فى واقع الأب صدى لحلم ليلته . وواقع الام مر وحلو مثل واقع الطفل من مرارة « الصبار » على ثدى الام وهى تخالط حلاوة اللبن .

وهكذا بات الثلاثة ...

وعند الصباح كان ذاهبا الى مكتبه وهو يحاول ان يتمثل ازمة طفله ويعيشها . لكنه عندما دخل ... لم يجد الآنسة .. ولم تحضر اليوم .

وفى الليلة الثانية عادت التجربة نفسها . تجربة الحنين والبكاء . وذهب الأب الى مكتبه فى الصباح فلم يجد الآنسة . فخيل اليه ان القدر أعاده طفلا صغيرا .. كتب عليه الفطام ودهن ثدى امه « بالصبار » .

فجلس يحملق فى مكانها الخالى . ويتصور أن خلوه بالنسبة اليه امثل وضع . فقد كان يمشى مع طفله فى طريق واحد . كل منهما مجبر على السلوان .

بعد خمسة ايام عادت الآنسة ... دخلت فوجدت نظام الحجرة مغيرا. مكتب الاستاذ كامل مكان مكتبها غير مكتبين آخرين جلس على أحدهما رجل مسن وعلى الثانى شاب نحيل وخلف كل منهما رفوف ودوسيهات ... دنيا ... تغيرت معالمها .

ولم يكن الاستاذ كامل حاضرا . كان فى الادارة العامة ... وعندما دخلت الآنسة ضحك فى وجهها الرجل المسن وقال وهو يهرش بالقلم خلف أذنه ويبتسم من خلال طقم الاسنان : .

ـ مكتبك تحت يا انسة ...

فدهشت . وسألت :

ـ واين الاستاذ كامل ؟

فرد نفس الموظف :

ـ الآن ... فى الادارة العامة .... ومن هناك الى البيت ...

كانت الآنسة تستدير لتأخذ طريقها الى مكانها الجديد لكن الموظف المسن استوقفها وهو يقدم لها يده بشىء وهو يبتسم :

ـ خذى هذه !!

ـ ما هذا ؟

فقال من خلال ضحكه :

ـ قطعة شيكولاته ... قدمها لى الاستاذ كامل مما اشتراه لابنه المفطوم ... (هى هى) ليس لى أسنان لامضغها ... خذيها انت .

أخذتها الآنسة فى هدوء لم يخل من الحزن . وقفت قليلا فى وسط الحجرة ثم التقت عيناها بعينى الشاب ... كان ساهما قلقا يدخن ناسيا نفسه . فتقدمت اليه ومدت يدها بقطعة الشيكولاته قبل ان تخرج وهى تقول له بصوتها الوانى :

ـ انت الذى تستطيع ان تأكلها . هل تحب ان تأخذها ؟!

فقال بدهشة وسعادة :

ـ نعم نعم نعم ...

سلا الطفل الرضيع ثم سلا الأب كذلك . أما الشاب النحيل فقد لوحظ عليه بعد اسبوع من أكله الشيكولاته ان كشوف حساباته اضحت مليئة بالأخطاء